نور الدين الشهيد

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد :

فهو الملك العادل نور الدين محمود زنكي الملقب بالشهيد، ولد يوم الأحد السابع عشر من شوال سنة إحدى عشرة وخمسمائة بحلب، ونشأ في كفالة والده عماد الدين زنكي صاحب حلب والموصل وغيرهما من البلدان الكثيرة الكبيرة، وعماد الدين هو معلم أبناء السلطان محمود السلجوقي، وهو الذي جند قواته في العراق والشام، وشن الغارة على « الرها » التي كانت أقوى وأحصن منطقة في ولاية الصليبيين، ولها أهميتها الإستراتيجية

الخاصة فاستولى الزنكي عليها في السادس من جمادى الآخرة سنة ٥٣٩ هـ، وكانت انتصاره « فتح الفتوح » كما يُعبر عنه المؤرخون، وهكذا تحصن وادي الفرات من خطر الصليبيين، وبعد مدة قليلة من هذا الإنتصار استشهد عماد الدين سنة ٥٤١ هـ، حيث تولى نور الدين أمور الدولة الزنكية فتواصل جهاد الصليبيين على يديه، وقد تعلم القرآن والفروسية والرمي وكان شهمًا شجاعًا ذا همة عالية وقصد صالح وحُرمة وافرة وديانة بينة افتتح دمشق في سنة تسع وأربعين فأحسن إلى أهلها وبنى لهم المدارس والمساجد ووسع لهم الطرق والأسواق وكان يحب العلماء والفقراء ويكرمهم ويحترمهم ويحسن إليهم، أقام السنة وغير البدعة وقمع الرافضة وأمر بالتأذين بحي على الصلاة حي على الفلاح، وإنما كان يؤذن بحي على خير العمل، يقول ابن الأثير « وكان يصلي كثيراً من الليل ويدعو ويستغفر ولا يزال كذلك إلى أن يركب » وقد كان رحمه الله حسن الخط كثير المطالعة للكتب الدينية متبعًا للآثار النبوية، محافظًا على الصلوات في الجماعات، كثير التلاوة محبًا لفعل

الخيرات، عفيف البطن والفرج مقتصداً في الإنفاق على نفسه وعياله في المطعم والملبس، حتى قيل: إنه كان أدنى الفقراء في زمانه أعلا نفقة منه من غير اكتناز ولا استئثار بالدنيا، وقد شكت إليه زوجته الضائقة وزيادة النفقة فاحمر وجهه وقال: «من أين أعطيها ما يكفيها والله لا أخوض نار جهنم في هواها، ثم قال: لي بمدينة حمص ثلاثة دكاكين ملكًا، وقد وهبتها إياها فلتأخذها».

ولم يُسمع من نور الدين كلمة فحش قط في غضب ولا رضى صموتاً وقوراً، وكان يعقد مجالس العدل ويتولاها بنفسه، ويجتمع إليه في ذلك القاضي والفقهاء والمفتون، ويجلس في يوم الثلاثاء بالمسجد ليصل إليه كل واحد من المسلمين وأهل الذمة، حتى يساويهم، وله أوقاف كثيرة على جميع أبواب الخير، وعلى الأرامل والمحاويج قال ابن الأثير – رحمه الله – «طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وبعده إلى يومنا هذا فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة منه، ولا أكثر تحريًا للعدل والإنصاف منه».

ولما علم نور الدين أن أمراء وقواد جيوشه تعدوا على من يجاورهم، فكثرت الشكاوى إلى القاضي كمال الدين، فأنصف بعضهم ولم يتجرأ على القائد أسد الدين شيركوه، ما كان من نور الدين إلا أن بنى داراً للعدل، وأحس أسد الدين بهذا فقال لنوابه: «والله لئن أحضرت إلى دار العدل بسبب أحدكم لأصلبنه، فامضوا إلى كل من بينكم وبينه منازعة فأرضوه وافصلوا الحال معه، فقالوا: إذا فعلنا هذا فإن الناس يشتطون في الطلب، فقال: خروج أملاكي عن يدي أسهل عليَّ من أن يراني نور الدين بعين ظالم، وكان نور الدين يجلس في هذه الدار يومين في الأسبوع، فلما علم ما حصل مع أسد الدين شيركوه سجد لله شكراً».

وقد بلغ من توقيره ومحبته لأهل العلم والدين، ما جعل الأمراء ويحسدونهم على ذلك، فقد ذكر أحد الأمراء الشيخ قطب الدين النيسابوري أمام نور الدين وقال له السلطان: يا هذا الذي تتكلم عليه فله حسنة تغفر كل زلة وهي العلم والدين، وأما أنت وأصحابك ففيكم أضعاف ما ذكرت، وليست لكم حسنة تغفرها، وأنا أحمل سيئاتكم

مع عدم حسناتكم، أفلا أحمل سيئة هذا – إن صحت – مع وجود حسناته، على أنني لا أصدقك فيما تقول، وإن عدت وذكرته بسوء لأؤدبنك.

ومن عفته وتقواه أن ما كان يُهدى إليه من هدايا الملوك لا يتصرف في شيء منه لا قليل ولا كثير، بل يخرجه إلى مجلس القاضي، ويحصل ثمنه ويصرفه في عمارة المساجد المهجورة، وكان نور الدين رحمه الله يتقبل النقد بصدر رحب مهما بلغت شدته، ومن ذلك ما فعله الواعظ أبو عثمان المنتخب بن أبي محمد الواسطي – كان من صالحي زمانه – تناول نقداً للدولة الزنكية في أخذها الضرائب والمكّوس في حضور نور الدين نفسه، فحذره وخوفه مما هو فيه، وقال لنور الدين هذه القصيدة:

مثل وقوفك أيها المغرور ... يوم القيامة والسماء تمور
إن قيل نور الدين رحت مسلمًا ... فاحذر بأن تبقى ومالك نور
أنهيت عن شرب الخمور وأنت في ... كأس المظالم طائش مخمور
عطلّت كاسات المدام تعفُّفًا ... وعليك كاسات الحرام تدور
ماذا تقول إذا وقفت إلى البلى ... فردًا وجاءك منكرٌ ونكير

وتعلقت فيك الخصوم وأنت في ... يوم الحساب مسلسل مجرور
وتفرقت عنك الجنود وأنت في ... ضيق القبور موسد مقبور
وودت أنك ما وليت ولاية ... يومًا ولا قال الأنام أمير
وبقيت بعد العز رهن حفُيرة ... في عالم الموت وأنت حقير
وحسرت عريانًا حزينًا باكيًا ... قلقًا ومالك في الأنام مجير
أرضيت أن تحيا وقلبك دراس ... عافي الخراب وجسمك المعمور
أرضيت أن يحظى سواك بقربه ... أبدًا وأنت معذب مهجور
مهد لنفسك حجة تنجو بها ... يوم المعاد يوم تبدو العور

فلما سمع نور الدين هذه الأبيات بكى بكاءً شديداً، وأمر بوضع المكوس والضرائب في سائر البلاد.

وكتب إلى الناس ليكون منهم في حل مما كان أخذ منهم، ويقول لهم: إنما صُرف ذلك في قتال أعدائكم من الكفرة والذب عن بلادكم ونسائكم وأولادكم وكتب بذلك إلى سائر ممالكه وبلدان سلطانه، وأمر الوعاظ أن يستحلوا له من التجار، وكان يقول في سجوده: اللهم ارحم المكاس العشار الظالم محمود الكلب.

وكان رحمه الله يحارب روح التزلف والنفاق

للمسئولين، فمن ذلك أنه منع خطباء المساجد الذين يبالغون في الدعاء له ويصفونه بالعبارات الرنانة التي تعودوا أن يتقربوا بها إلى قلوب السلاطين، فطلب إلى خالد بن محمد بن نصر القيسراني أن يوقف ذلك، وأن يكتب له صيغة دعاء بسيط تطابق الواقع بأحواله وأفعاله، فكتب له الصيغة التالية:

«اللهم أصلح عبدك الفقير إلى رحمتك، الخاضع لهيبتك، المعتصم بقوتك، المجاهد في سبيلك، المرابط لأعداء دينك: أبا القاسم محمود بن زنكي بن أق سنقر ناصر أمير المؤمنين».

فقرأ نور الدين نسخة الدعاء وعلق عليها العبارة التالية: «مقصودي ألا يكذب على المنبر، أنا بخلاف كل ما يقال أأفرح بما لا أعمل؟! قلة عقل عظيم، الذي كتبت هو جيد اكتب به نسخًا حتى نسيره إلى جميع البلاد» ثم أضاف: ثم يبدأ بالدعاء «اللهم أره الحق حقًا، اللهم أسعده، اللهم انصره، اللهم فقهه».

يقول ابن الجوزي - وهو من معاصري السلطان - في تاريخه «المنتظم»:

«جاهد الثغور، وانتزع من أيدي الكفار نيفًا وخمسين

مدينة، وكانت سيرته أصلح من كثير من الولاة، والطرق في أيامه آمنة، والمحامد له كثيرة، وكان يتدين بطاعة الخلافة، وترك المكوس قبل موته، وكان يميل إلى التواضع، ومحبة العلماء وأهل الدين».

فيقول ابن الأثير: «كان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف إلا في الذي يخصه من ملك كان له، قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين، ولقد شكت إليه زوجته من الضائقة فأعطاها ثلاث دكاكين في حمص كانت له، يحصل له منها في السنة نحو العشرين دينارًا، فلما استقلتها قال: ليس لي إلا هذا، وجميع ما بيدي أنا فيه خازن للمسلمين، لا أخونهم فيه، ولا أخوض نار جهنم لأجلك!! وكان يصلي كثيرًا بالليل، وله فيه أوراد حسنة.

«وكان عارفًا بالفقه على مذهب أبي حنيفة ليس عنده فيه تعصب، وسمع الحديث وأسمعه طلبًا للأجر».

«وأما عدله فإنه لم يترك في بلاده - على سعتها - مكسًا ولا عشرًا، بل أطلقها جميعها في مصر والشام والجزيرة والموصل، وكان يعظم الشريعة، ويقف عند

أحكامها، وأحضره إنسان إلى مجلس الحكم، فمضى معه إليه، وأرسل إلى القاضي كمال الدين ابن الشهرزوري يقول: قد جئت محاكمًا فاسلك معي ما تسلك مع الخصوم، وظهر الحق له فوهبه الخصم الذي أحضره، وقال: أردت أن أترك له ما يدعيه، إنما خفت أن يكون الباعث لي على ذلك الكبر والأنفة من الحضور إلى مجلس الشريعة، فحضرت، ثم وهبته ما يدعيه. وبنى دار العدل في بلاده، وكان يجلس هو والقاضي فيها ينصف المظلوم – ولو أنه يهودي – من الظالم – ولو أنه ولده أو أكبر أمير عنده».

«وأما شجاعته فإليها النهاية، وكان في الحرب يأخذ قوسين وتركشين ليقاتل بها، فقال له القطب النشاوي الفقيه: بالله عليك، لا تخاطر بنفسك وبالإسلام والمسلمين، فإن أصبت في معركة لا يبقى من المسلمين أحد إلا أخذه السيف، فقال له نور الدين: ومن محمود حتى يقال له هذا؟! من قبلي من حفظ البلاد والإسلام؟ ذلك الله الذي لا إله إلا هو».

وكان جل هم السلطان نور الدين منصرفًا إلى الجهاد ومحاربة الصليبيين. فالجهاد شغله الشاغل وهوايته المحببة، وكان يتمتع في ذلك بقسط وافر من الإيمان واليقين، والعزم

والإخلاص، والتوكل على الله تعالى، وبعد الهمة والثقة بالنفس. يرى دحر الصليبيين واستعادة بيت المقدس من أعظم الطاعات والقربات، وقد استقرت مهابته في جميع الولايات الصليبية لغاراته المتواصلة عليها.

وفي سنة ٥٥٨ هـ انهزم نور الدين في معركة حصن الأكراد – وهي الوقعة المعروفة بالبقيعة – لمباغتة الصليبيين، وكان نازلاً بالقرب من حمص، وكان بينه وبين العدو عدة فراسخ، فقال للسلطان بعض من كان يمحص النصيحة له: ليس من الرأي أن يقيم السلطان ههنا والعدو المنتصر جد قريب، فأسكته السلطان وقال:

«إذا كان معي ألف فارس لقيتهم ولا أبالي بهم، ووالله لا أستظل بسقف حتى آخذ بثأري وثأر الإسلام».

وفرق السلطان الأموال في المعسكر، وأغدق عليهم العطايا، وقال له بعضهم: إن لك في بلادك إدارات وصدقات كثيرة على الفقهاء والفقراء والصوفية والقراء وغيرهم، فلو استعنت بها في هذا الوقت لكان أصلح، فغضب السلطان من ذلك، وقال:

«والله إني لا أرجو النصر إلا بأولئك، فقد جاء في

الحديث الشريف «إنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم» كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم على فراشي بسهام لا تخطئ، وأصرفها إلى من لا يقاتل عني إلا إذا رآني بسهام قد تصيب وقد تخطئ، وهؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال، كيف يحل لي أن أعطيه غيرهم؟!».

وأخذ السلطان نور الدين في الاستعداد والتأهب للجهاد والأخذ بثأره من الصليبيين الذين هزموه، وأغدق على العسكر الأموال والمنح والسلاح، وأرسل إلى أصحاب الأطراف وولاة الأمر في البلاد الإسلامية، يحضهم على الجهاد في سبيل الله والانضمام إلى لوائه، وكاتب زهادها وعبادها، وصلحاءها وقراءها، يذكرهم ما لقي المسلمون من الفرنج، يستمد منهم الدعاء، ويطلب أن يحثوا المسلمين على مكافحة الغزاة، فقعد كل واحد من أولئك ومعه أصحابه وأتباعه، وهم يقرؤون كتب نور الدين ويدعون له ويبكون، حتى ثار الناس للجهاد في سبيل الله، ونفروا خفافاً وثقالاً، وجاء العدو بخيله ورجله، وحده وحديده، وملوكه وفرسانه، وقسوسه ورهبانه، فحمي الوطيس، وشبت حرب شعواء، وأوفى السلطان بنذره، فهزم قوى العدو الموحدة هزيمة نكراء، واستولى على قلعة حارم، وانتزعها من أيدي

الأعداء. وكان ذلك سنة ٥٥٩ هـ، وكان في حملة الأسرى صاحب أنطاكية والقمص صاحب طرابلس والدوك مقدم الروم وابن جوسلين، والقتلى يزيد عددهم على عشرة آلاف قتيل صليبي، والأسرى لا يأتي عليهم الحصر وفي نفس السنة فتح السلطان قلعة بانياس وكذلك استولى على مصر.

ومما يدل على قوة إيمان نور الدين ويقينه، أن أخاه «نصرة الدين» أمير «أميران» أصابه سهم في محاصرة قلعة «بانياس» فأذهب إحدى عينيه، فلما رآه نور الدين قال له: «لو كشف لك عن الأجر الذي أعد لك لتمنيت ذهاب الأخرى!».

إنها صفحات من نور، وتاريخ مشرق لرجل لم يكن نبياً ولا صحابياً، ولكن كان عنده من حسن التأسي ما ارتفع به قدره وعلت به مكانته، ولقد استطاع أن يقيم دولة مرهوبة الجانب، والخلافة موضوعة لإقامة الدين وسياسة الدنيا به، علم ذلك نور الدين محمود فأعد الشعب إعداداً إسلامياً وطهر الحياة من التيارات الفكرية المنحرفة كالباطنية وآثار الفلسفة اليونانية والممارسات العبيدية، وأوضح غرضه من بناء المدارس فقال «ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم ودحض البدع من هذه البلدة وإظهار الدين»، واهتم نور

الدين بالإعداد المعنوي والروحي وتواكب ذلك مع التدريب العسكري، وألف كتاباً في الجهاد وانصبغت الإدارة بالصبغة الإسلامية وتم دمج القيادات السياسية والفكرية بالمفاهيم والأحكام الشرعية، واعتمد الشورى على أسس إسلامية فانحسمت مادة الارتجال والانفراد باتخاذ القرارات، بحيث صارت المصلحة العامة مقدمة على الانفعالات والمصالح الشخصية، وحدث نوع من التعاون والتآخي الإسلامي الرفيع ابتغاء مرضاة الله، كان من ثماره هذه الصفحة من صفحات التاريخ والتي تستحق أن تكتب بما هو أغلى من ماء الذهب.

إن نور الدين محمود هو ابن عماد الدين، ذرية بعضها من بعض، أي هذا الشبل من ذاك الأسد، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والإنسان ابن بيئته كما يقولون، فالأب والزوجة وتسلط الصليبيين على البلاد والعباد كانت بمثابة دوافع لعلو الهمة ولهذه الروح الإيمانية الجهادية، وكان عنده من البصيرة ما جعله يسعى في توحيد المسلمين ودمج بلاد الشام ومصر تحت قيادة واحدة ومنهج إسلامي من أصيل، بعكس من افتقد البصيرة فأقامها على المناهج الوضعية والنظم الطاغوتية فآل أمرها إلى مزيد من الشر والخلاف

وكان شأنه كالمستجير من الرمضاء بالنار، أو كالعير بالرمضاء يقتله الظمأ والماء فوق ظهوره محمول. وعلى كل حال فقد طرد السلطان نور الدين الصليبيين – إلى حد كبير – من جميع أنحاء فلسطين ولكن أغلى أمانيه كانت تتركز في استعادة بيت المقدس، ولكن عاجلته المنية وتوفي – رحمه الله – سنة ٥٦٩ هـ – ١١٧٤ م في مرض الخناق بالغاً من عمره ستًا وخمسين سنة ولعل أجر وثواب فتح بيت المقدس قد ناله ببركة نيته الطيبة وعمله الدءوب، ولأن صلاح الدين الأيوبي هو قائد جيوشه بل يعتبر من حسنات نور الدين ومآثره. وقد نزل خبر وفاة السلطان نور الدين على المسلمين كصاعقة سقطت عليهم من السماء. فاللهم اغفر له وارفع درجته في المهديين واخلفه في عقبه في الغابرين، واغفر لنا وله يارب العالمين، اللهم وسع له في قبره ونور له فيه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه

سعيد عبد العظيم

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين